الرابطة السورية
لكرامة المواطن

لا ينبغي أن تسمح تركيا بأن تتحول إدلب إلى سربرنيتسا جديدة

اسطنبول، 28 شباط، 2020

لبيب النحاس، مدير برامج الرابطة السورية لكرامة المواطن.

تستمر روسيا ونظام الأسد في قصف قرابة ثلاثة ملايين مدني في ادلب بمختلف أنواع الصواريخ والقنابل عالية التدمير، وبينما تتضاءل تدريجيا بقعة الأرض الصغيرة التي تم حصار هؤلاء المدنيين فيها، حيث تم تهجيرهم الى مخيمات مؤقتة ومرتجلة لا تحميهم من برد الشتاء القارس، يرى بعض المتابعين وصناع القرار أنها "النهاية القاسية ولكن الحتمية" للنزاع في سوريا. هذا التوصيف يدعو بقوة لمقارنته مع "حل نهائي" آخر تم إساءة تقديره لحرب حصلت في صيف 1995 في البوسنة والهرسك: سربرنيتسا.

وكما أن ادلب هي آخر المناطق التي لجأ إليها الهاربون من الحكم الوحشي لبشار الأسد – وحلفائه من الروس والإيرانيين . بعد أن أطلق حملة إجرامية ممنهجة من العنف ضد كل السوريين الذين تجرؤوا على الحلم بحريتهم وكرامتهم في ثورة 2011، فقد كانت سربرنيتسا آخر بقعة من الأرض احتضنت المسلمين البوسنيين في شرق البوسنة. إن مجرد وجود هؤلاء حرم سلودوبان ميلوسوفيتش ورادوفان كارادزيتش من تحقيق هدفهم الاستراتيجي بالتطهير العرقي لكامل وادي نهر درينا، ومحو الحدود الفاصلة بين صربيا والمناطق الواقعة تحت سيطرة البوسنيين الصرب.

حتى استراتيجية "الأرض المحروقة" في البوسنة هي نفسها التي نراها اليوم في سوريا، وهو أمر لا يجب أن يفاجئنا، حيث أن مصدر الاستراتيجية هو نفسه: روسيا, استراتيجية قامت على القصف العشوائي وتجويع المدنيين، تعذيب وقتل من يتم اعتقالهم، والتهجير الجماعي الذي خلّف مناطق واسعة تسكنها الأشباح، خالية من أهلها وسكانها الأصليين.

وبطريقة مشابهة أيضا لإدلب، تم اعتبار سربرنيتسا "منطقة آمنة" من قبل الأمم المتحدة، حيث أنه كان من المفترض أن ينعم أهلها بالحماية بضمانات من الدول الرئيسية المؤثرة. ولكن، كما نرى اليوم في إدلب وكما رأينا في سربرنيتسا، الضمانات دون الإرادة الحقيقة والأدوات لحمايتها ليست إلا حبرا على ورق، يمكن سحقها بالبراميل المتفجرة والقصف الجوي الذي ينشر الموت والرعب بين الذين يُفترض أنهم "تحت الحماية". لذلك، عندما قرر الصرب اجتياح سربرنيتسا، عجزت هذه الضمانات عن حماية المدنيين من التطهير العرقي الذي وقع لاحقا.

في الكتاب المؤثر لديفيد رود: "لعبة النهاية: سقوط وخيانة سربرنيتسا، أسوأ مجزرة في أوروبا منذ الحرب العالمية الثانية"، كشفت ملفات تحتفظ بها دول غربية أن سقوط سربرنيتسا تم تقبله من قبل قوى دولية ولا سيما إدارة كلنتون على أنه عنصر أساسي في "استراتيجية لعبة النهاية" لطي ملف الحرب في البوسنة. طبعا ادعى الجميع لاحقا أنهم لم يتوقعوا في أسوأ كوابيسهم أن القوات التي يقودها راتكو ملاديتش كانت سترتكب تطهيرا عرقيا فور سيطرتها على سربرنيتسا. أما في حالة ادلب، فإننا قطعا لا نستطيع أن ندعي أننا لا نعرف ماذا سيحصل.

المؤشرات والتحذيرات واضحة: تسعة سنوات من المجازر والإلغاء المنهجي لإنسانية السوريين الذين تجرؤوا على مواجهة بشار الكيماوي، بل وتصريحات السفاح نفسه لا تدع أي مجال للشك. فقد قال بشار في شهر آب من 2017 بطريقة مباشرة ومبتذلة أن ستة سنوات من القتل المنهجي للمدنيين وارتكاب أبشع جرائم الحرب ضدهم، بما في ذلك استعمال الأسلحة الكيماوية، قد ساعدته في بناء "مجتمع أكثر تجانسا".

كنتيجة لكل ذلك، ستكون روسيا قد نجحت في فرض أمر واقع جديد في ادلب وحلب، وترسيخ سيطرتهم العسكرية والأمنية والاقتصادية على المنطقة، وتحجيم حاد لنفوذ تركيا في القضية السورية وفي أي مفاوضات وحلول سياسية في المستقبل. ستجد تركيا نفسها تواجه ثلاثة أنظمة معادية لها وصلت فعليا إلى حدودها الجنوبية: روسيا، إيران ونظام الأسد، بالإضافة إلى عصابات البي كي كي الإرهابية. هذا السيناريو سيؤثر بشكل مباشر على مستقبل المنطقة ككل، ومرة أخرى سيتحول لجوء ونزوح السوريين إلى أمر مستدام، وسيكون له تأثير سلبي جدا على تركيا.

في كلا الحالتين (سقوط ادلب بأهلها، أو هروبهم إلى مناطق نفوذ تركيا)، لن يكون من الحكمة التفكير بأن روسيا ونظام الأسد سيتوقفون بعد السيطرة على ادلب وفرض أمر واقع جديد، وأنهم لن يحاولوا الاستمرار في التقدم باتجاه مناطق النفوذ التركية في شمال شرق سوريا. إن سجل روسيا بما يخص التزاماتها بالاتفاقيات والتعهدات مع تركيا هو سجل مخزٍ، ويكاد يحقق نسبة مئوية صفرية بما يخص الالتزام بما تم ابرامه بين الطرفين. كل هذا يجعلنا نعتقد أن أي اتفاقيات يتم الوصول إليها الآن مع الطرف الروسي لن يكون لها مصيرا مختلفا عما سبقها.

إذا سقطت إدلب بيد الروس، فمن المنطقي أن تنهار باقي مناطق النفوذ التركي في سوريا كنتيجة مباشرة لانعكاسات ما سيحدث في إدلب، وسيترتب على ذلك عواقب إنسانية وأمنية كبيرة، حيث سيتم حصر حوالي أربعة ملايين إنسان في بقعة جغرافية محدودة جدا.

أخيرا، إذا سمحت تركيا لروسيا ونظام الأسد بالاستيلاء على إدلب، فسيؤدي ذلك إلى تدمير مصداقية تركيا أمام أربعة ملايين سوري في تركيا على الأقل. إن ما قامت به تركيا تجاه اللاجئين السوريين هو أكثر مما قامت به أي دولة أخرى في العالم، وسيحمل السوريون العرفان في قلوبهم لهذا الجميل الكبير، ولكن ترك السوريين ليواجهوا مصيرهم المحتوم أمام روسيا وذيلها سيحدث ضررا كبيرا في صورة تركيا بين كل السوريين، ليس فقط في شمال سوريا، بل في كل البلد، حيث يحاول الغالبية الكبرى الهروب من استبداد واجرام الأسد، وتركيا تمثل بالنسبة لهم الأمل.

صرّح الرئيس أردوغان مرة أن الرئيس الراحل علي عزت بيغوفيتش طلب منه أن يعتني بالبوسنة بعد موته، وألا يسمح بأن تحصل سربرنيتسا جديدة. في هذه اللحظات، هذ النداء من عزت بيغوفيتش يكتسب بعدا أخر يتجاوز حدود البوسنة، ولا سيما أن سربرنيتسا جديدة تلوح في الأفق في إدلب. كل السوريين يتطلعون إلى تركيا لمنع الكارثة.

هذه العقيدة، التي تحرض عليها كل من روسيا وإيران، سيتم تطبيقها في ادلب بطريقة أكثر بشاعة ودموية. الشواهد على ذلك واضحة منذ الآن ونراها جلية في الأعمال الانتقامية التي يرتكبها النظام والميليشيات الإيرانية في المناطق التي يسيطرون عليها: إعدامات ميدانية، اعتقالات عشوائية، وحتى نبش للقبور. كل هذه الجرائم أصبحت عناصر اعتيادية في سلوك النظام وحلفائه. بإمكاننا أن نتخيل مستوى حقدهم على سكان محافظة ادلب الذين رفضوا بشدة العيش تحت حكم الأسد، وفضلوا التهجير عدة مرات في شروط غير إنسانية، ولكن سيكون من الصعب تصور حجم الانتقام والجرائم الفظيعة التي سترتكبها قوات الأسد في سعيها الإجرامي لتحقيق مجتمعه "المتجانس".

مسؤولية منع حدوث سربرنيتسا جديدة في ادلب ولكن على مقياس أكبر بكثير، تقع على عاتق الدول الكبرى المؤثرة، ولاسيما تركيا. إن ثقل هذه المسؤولية لا يأتي من البعد الأخلاقي للقضية فحسب، أو من التزام تركيا كدولة ضامنة في "اتفاقية سوتشي"، ولكن لمصالح استراتيجية وسياسية لتركيا ستكون مهددة على المدى البعيد في حال تمكن نظام الأسد وروسيا وإيران من السيطرة على ادلب. العديد من السيناريوهات القاتمة تلوح في الأفق على المدى القصير، وكلها تحتاج قرارات حاسمة من تركيا.

لا بد من الإشارة هنا إلى حقيقة غائبة عن أذهان الكثيرين: وهي أن من أسباب قيام روسيا بحملتها على إدلب بهذه الطريقة المسعورة، والمخاطرة بتدمير علاقتها مع تركيا هو التفكك المتسارع والحتمي للنظام السوري على المستوى الاقتصادي والاجتماعي وكنتيجة مباشرة على المستوى الأمني. لقد أدركت روسيا أنها لن تتمكن من تحويل مكاسبها العسكرية الى رأسمال سياسي مستدام من خلال العمل الدبلوماسي والمسار السياسي بوتيرته البطيئة قبل أن يتفكك النظام السوري بشكل كامل. لذلك، قررت روسيا تطبيق "نموذج غروزني" لتحقيق الإبادة الكاملة لكل من يقف في طريق أهدافها الاستراتيجية وانهاء الحرب قبل أن ينهار النظام.

إحدى أهم النتائج المباشرة للسيناريو الكارثي في حال سمحت تركيا للنظام والروس والإيرانيين السيطرة على ادلب وممارسة حملة انتقام مروعة ضد أهلها الذين لم يتمكنوا من الهروب بأرواحهم، هو موت الحل السياسي بشكل نهائي وتبخر أي احتمال لعودة حقيقية وبأعداد كبيرة للاجئين السوريين إلى سوريا، بما في ذلك اللاجئين السوريين في تركيا.

لقد أبدت روسيا وذنبها في دمشق، نظام بشار، منذ فترة طويلة عدم حرصهم او اكتراثهم بالوصول إلى حل سياسي حقيقي، وفي حال تمكنت روسيا من تحقيق نصر عسكري كامل فمن المؤكد أنها لن تقدم أي تنازلات سياسية أو تسويات ستُطلب منها ضمن المسار السياسي. في هذه الحالة، سيكون الحل السياسي ميتا عمليا، وحالة التهجير والنزوح التي يعيشها السوريون ستتحول إلى حالة طويلة الأمد إن لم تكن مستدامة. وأي خطط لإعادة اللاجئين من تركيا الى مواطنهم الأصلية في "درع الفرات" او "عفرين" ستكون مستحيلة، لأن السوريون سيفقدون الثقة بأي ضمانات ستُقدم لهم من قبل أي ضامن بعد أن يروا بأم أعينهم مصير ادلب وأهلها، وسيكون من الصعب بمكان اقناعهم بأن هذه المناطق التي سيعودون لها لن تتحول الى "ادلب" جديدة.

وبدلا من عودة اللاجئين الى سوريا، سنرى موجات جديد من النزوح داخل سوريا والضغط باتجاه الحدود التركية، وسيكون من الصعب إيقاف هذه الموجات من العبور. ادلب لن تتمكن من الاستمرار في استيعاب حوالي مليون مهجر داخلي مع تآكل بقعة الأرض التي تحتضنهم، وانعدام البنية التحتية والخدمية لاستيعاب هذه الاعداد ولا سيما مع استمرار الهجوم الاجرامي لروسيا والنظام السوري.